بقعة منيرة صغيرة

إلى الفنّان ياسر حمّود

ناصر الرباط *

عندما نزلنا من غرفتي في بيت الطلبة كان الظلامُ قد حلّ. وأضاءت دروبَ الحديقةِ الهزيلة النباتات مصابيحُ الفلوريسنت البيضاء الكابية والمتباعدة والتي تكاد لا تُفْلح في نشر ضوئها ضمن هالةٍ صغيرةٍ حولها تتجمّع فيها أصنافُ الهوام والحشرات وهي تئزّ وتدور. كان الوقت ربيعًا، وجوُّ المساء قد ابتدأ يميل إلى البرودة. وكنّا كلانا نرتدي ثيابًا خفيفة سمحتْ للسعاتٍ باردةٍ بالنفاذ إلى جلودنا، فأثار ذلك فينا قشعريرةً حاولنا تجاهلَها كما كنّا نحاول تجاهُلَ القرار الذي كنّا على وشك اتّخاذه. وسرنا معًا باتجاه المدخل الإسمنتي المكعّب والحديث، الضخم والبشع، ولكنْ من دون أن نتقارب واحدنا من الآخر. وإمعانًا في تأكيد التباعد الناشئ، وتأكيدًا لموقفي العقيم الذي كنتُ قد أعلنْتُه قبل قليل، وضعتُ يديّ في جيْبيْ بنطالي الذي كان ضيّقًا عليّ أصلاً في حين سارت نائلة وهي تحدِّق أمامها، وذراعاها مضمومتان إلى صدرها الممتلئ، ربما لمنحهما بعضَ دفئة، وربما لتفادي الحركة التلقائية التي كانت تَدْفعها عادةً إلى التفتيش عن يدي عندما نمشي معًا والإمساكِ بها إمساكَ المالك وتمسيدِها بهدوءٍ تأكيدًا للتواصل بيننا الذي يجب أن يعبِّر عن نفسه دومًا «وبكلّ طريقة،» على حدّ تعبيرها.

كنّا أنا ونائلة متحابَّيْن منذ أقلّ قليلاً من سنة. تعرّفنا واحدُنا على الآخر عندما جاءت مع صديقةٍ لها لم تشأ الخروجَ مع صديقي يوسف، المهذارِ واللعوب، وحدها، فسألتْها أن تأتيَ معها، وأخبرتْ صديقي بأنّها ستأتي بصحبة صديقةٍ لها فنّانة؛ فلعلّه يجد رفيقًا مناسبًا يشاركهم الموعد. ولم يجد يوسف غيري؛ فأنا الوحيد من بين أصدقائه الكثيرين الذين تلائمهم صفةُ «فنّان» التي لم تعنِ له الكثير. فأنا لاعبُ على البيانو موهوب، والكلُّ يتنبّأ لي بمستقبل واعد. وافقتُ على مصاحبته وذهبنا بسيارته للقاء الصبيتَيْن. أخذناهما إلى مطعم للغذاء، وكنتُ أعرف عليا من قبل، ولكنّي أُخذتُ بنائلة التي كنتُ أقابلُها للمرة الأولى.

فهي جميلة جمالاً هادئًا لا يُجْبرك على التركيز عليه وإهمالِ غيرِه من صفاتها. وهي مثقفةٌ ثقافةً واسعةً ومتحرِّرة، ومحدِّثةٌ لبقةٌ ومشوِّقة. والأهمّ من هذا وذاك أنّها واضحة وصريحة في مواقفها وآرائها، ربما بجرأة زائدة بالنسبة إلى محيطنا الاجتماعي القلق الذي يَنُوس بين مُحافَظةٍ متأصّلة وعصريةٍ متعثّرة. ولكنّ تمسُّكَها برأيها واندفاعَها في شرحه أو الدفاع عنه لا يتجاوزان أبدًا حدودَ اللياقة والأدب. فهي تتكلّم بثقة، وتفسح المجالَ للآخرين دومًا، تصغي إلى ما لديهم بانتباه والابتسامةُ لا تَفارق شفتيْها، وتلتمع عيناها فرحًا عندما تلاحظ تقاربًا في الآراء معهم، ولا تغادر أبدًا غاضبةً أو مخاصمة.

سألتْني بعد أن استقرّ بنا المقامُ في المطعم وتبادلْنا المعتادَ والسطحيّ من الكلام: «سمعتُ من عليا أنّك تدرس الموسيقى، وأنّك عازفٌ ماهرٌ على البيانو.»

قلتُ بلهجةٍ أردتُها واثقةً ومتواضعة: «أُحبّ الموسيقى وأدْرسها بشغف، ولكنّي أترك الحكمَ على مهارتي في العزف لغيري.»

فقالت مباشرةً: «لا يخطرنّ على بالك أنّي أحاول تملُّقَك.» وأشفعت ذلك بقولها: «ولربّما أتحتَ لي فرصةَ سماعِكَ والحُكْمِ بنفسي.»

قلتُ مشجِّعًا ومتشجِّعًا في الآن نفسه. «وهل أنتِ أيضًا موسيقية؟»

قالت: «لا، ولكنّي أَعْبد الموسيقى الكلاسيكية، خاصةً سوناتات البيانو الهادئة التي أَسْمعها دومًا في مرسمي عندما أكون مستغرقةً في عملي.»

«وهل أنتِ رسّامة أمْ نحّاتة؟» سألتُ.

«أرسمُ بالألوان المائية على الغالب. ولا أحبُّ رسمَ الأشخاص، بل أركّز على الطبيعة والمدينة. ولكنّي في بداية طريقي، ولم أَعْرضْ لوحاتي بعد قطّ.»

---

* ـ أستاذ الآغا خان للعمارة الإسلامية ـ كلية العمارة، معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (M.I.T.)

فقلت. «أدعوكِ إلى سماع عزفي إذا دعوتِني إلى مرسمك ورؤيةِ رسومك.»

«بكلّ ترحاب،» أجابت، «فلا شيء لديّ أهمّ من رأي فنّانٍ حسّاس بلوحاتي.»

أعجبني إطراؤها المباشرُ والمهذّب، وأردت الطَّرْقَ على الحديدِ وهو حامٍ، فقلت. «وهل يَنْحصر اهتمامُكِ بالموسيقى الغربية الكلاسيكية فقط، أم أنّكِ تحبّين غيرَها من الأنواع؟»

«أحبّ كلَّ الموسيقى،» قالت.

«إذن أرجو أن توافقي على دعوتي الليلةَ إلى حفلةِ موسيقى تقليدية مغربية، تحييها فرقةٌ مشهورةٌ من طنجة على مسرح المعرض.»

فأجابت بكلّ عفوية: «كم يسعدني ذلك! فقد سمعتُ عن العرض، وظننتُ أنّ التذاكر نفدتْ. وأنا لكَ جدُّ شاكرة على دعوتك.»

حانت منّي التفاتةٌ، لحظتَها، إلى يوسف وعليا اللذيْن جلسا مشدوهيْن وهما يتابعان حديثَنا الذي ما انفكّ يزداد خصوصيةً؛ فهما كانا يظنّان أنّنا، نحن الاثنيْن، هناك لمرافقتهما ومسايرتهما ولإضفاء بعض البراءة على موعدهما الأول فقط. وفوجئا بسرعة تقاربنا، وفوجئا أكثرَ وأكثرَ بالكيفية التي اتفقنا بها على الالتقاء وحدنا، ولم يكونا هما الاثنان قد تجاوزا في حديثهما العموميّاتِ بعدُ!

ذهبنا مساءً، واستمعنا إلى عرض مثير وفيّاض بالمشاعر، خَلَطَ فيه الموسيقيون الموروثاتِ الأندلسيةَ بالتأثيرات المعاصرة، من دون أن تَفْقد موسيقاهم طابعَي الأصالة والجدية. خرجنا من المسرح منتشين تمامًا بالموسيقى، وقالت لي نائلة: «كم كانت رائعةً هذه الحفلة! شكرًا لك على دعوتي. ربما أمكنَك أن تُكْمل دعوتَكَ بمرافقتي إلى بيتي مشيًا على الأقدام؛ فالليلة رائقة صافية، والنسيم جميل، وصدى الألحان مازال يتردّد في أعماقي. فربما أَمْكننا أن نطيلَ هذه اللحظةَ السحريةَ قليلاً.»

كأنّها قرأتْ أفكاري وسبقتني في الكلام. أجبتُ «فعلاً، هذه فكرة جميلة. هيّا بنا.» وأمسكتُ بيدها، وتجاوزتُ وإيّاها جموعَ المحتشدين بانتظار التاكسيات، وقطعْنا الشارعَ إلى الرصيف المقابل. سألْتُها: «من أيّ طريق تريدين السير؟» «من اليسار،» أجابت. وكان هذا هو الاتجاهَ الأطولَ عودةً إلى بيتها. وبقيتْ يدي في يدها، بَيْدَ أنّي أرخيتُ من قبضتي بعد اجتيازنا الشارعَ وزوالِ المبرِّر الذي سَمَحَ لي بإمساكِ يدِها أصلاً. ولكنّها لم تُفلتْ يدي. بل إنّها شدّت عليها قليلاً وسارت إلى جانبي من دون أن تتكلّم.

اجتزنا الشوارعَ التجارية بمحلاتها المقفلة وأكداسِ زبالتها المتكوّمة على الرصيف أمامها بانتظار سيارات البلدية لتأتي وتأخذها ومررنا أمام بعض محلات السندويشات التي كانت ماتزال مفتوحةً حتى ذلك الوقت المتأخّر، وسألْتُها إنْ كانت جائعةً أو عطشى؟ «ليس لأكلٍ أو شراب،» أجابت، «وأنا في أمسيتنا هذه أُرضي هذا الجوعَ.» وضغطتْ على يدي التي كانت ماتزال مستسلمةً في يدها، وابتدأتْ تمسِّد باطنَ كفي بإبهامها تمسيدًا خفيفًا أثار فيّ مشاعرَ رقيقةً، ولكنّها لم تنظرْ في اتجاهي ولم تتكلّم. مشينا واجتزنا الفنادقَ الكبيرةَ المضاءة بصخبها وحفلاتها الزاعقة، ووصلْنا إلى المنطقة السكنية الهادئة المطلة على الماء، وبقيت يدانا متعانقتيْن، وكان إبهامُها يعود إلى تمسيد كفي على دفعات، فتتأجّج مشاعري على دفعات أيضًا.

وصلْنا إلى شارعها الفسيح والراقي، بأشجاره الوارفة والمسقيّة دومًا، وأنواره الخافتة. كانت الساعة الواحدة صباحًا ولا أحد ولا صوت في الشارع، ولا نور من النوافذ، ما عدا القليل القليل الذي مازال أصحابُه ساهرين في هذا الليل المنعش. وقفنا قبالةَ المبنى الذي تقيم نائلة في الطبقة الأولى منه مع أمّها وأختها وتتخذ مِن قبوه مَرْسمًا كما أخبرتني. والتفتتْ إليّ واقتربتْ منّي ورفعتْ نفسَها كراقصة على أطراف أصابعها وطبعتْ على شفتي قبلةً حارةً من دون أن تُغْمض عينيْها، اللتيْن بقيتا تَنْظران في عمقِ عينيّ من دون تردُّد ولا خجل. لم أتحرّك من مكاني؛ كلُّ ما فعلتُه هو أنّي أحنيتُ رأسي إلى الأسفل ليصل فمي إلى فمها لأنّي أطولُ منها بأكثر من شبر، واستسلمتُ لقبلتها. ثم انفكّت عنّي كما اقتربتْ منّي، ورجعتْ خطوتين إلى الوراء وعيناها تضحكان، وشفتاها ـ اللتان كانتا حتى لحظةٍ

قريبةٍ ملتصقتيْن بشفتيّ ـ تتألّقان. وهمستْ لي: «شكرًا على هذه الليلة الرائعة. آمل أن نكرِّرها قريبًا » ثم استدارت وصعدتْ إلى منزلها، وأنا واقفٌ هناك كالأبله لا أقول شيئًا

❖ ❖ ❖

تعدّدتْ لقاءتُنا في نهاية ذلك الصيف. فقد كنّا، كلانا، في عطلتنا الصيفية: هي من كلية الفنون التي قاربتْ على الانتهاء من الدراسة فيها، وأنا من المعهد العالي للموسيقى الذي كنتُ في سنتي الأخيرة فيه أنتظرُ الحصولَ على منحةٍ لإكمال دراستي كعازفٍ سيمفوني في معهد عالمي. كنّا نتلاقى أحيانًا ظهرًا لتناول الغذاء، أو نخرج مساءً لعشاءٍ أو حفلةٍ موسيقية أو معرضٍ فني أو جلسةٍ أدبية. وعرَّفتُها إلى أصدقائي من الفنانين والأدباء والموسيقيين الطالعين الذين كانوا يجتمعون في مقهى بعينه كلَّ أمسية يتناقشون ويتناوشون ويَحْلمون، ولم تكن هي تَعْرِف الكثيرَ من الفنانين لأنّ محيطها الاجتماعي المغلق نوعًا ما لم يَسْمح لها بالانفتاح على مَنْ هم ـ في عرف طبقتها ـ بوهيميون ومتشرِّدون ولكنّها سرعان ما اندمجتْ مع أصدقائي وصارت واحدةً منهم، يشتاقون إليها ويترقّبون مجيئَها ويتأفّفون منّي إذا ظهرتُ بينهم من دونها، مع أنّهم رحّبوا بها تمامًا عندما جاءت مرةً من دوني.

لكنّ أحلى أوقاتنا معًا بدأتْ مع بداية العام الدراسي عندما أصبحنا نَقْضي ساعاتٍ طويلةً وحدنا: إمّا في غرفتيَ المعتمة نوعًا ما في مسكنِ الطلبة، نَدْرس ونَسْمع الموسيقى على جهازي الستيريو المتطوِّر، رمزِ الرفاهية الأغلى الذي كنتُ أقتنيه، وإمّا في مرسمها المشمس والرحب، بأصص زرعه ولوحاته وسجاجيده الملوّنة والمزركشة، نَسْمع الموسيقى على جهازها التجاري، وهي تَرْسم، وأنا أقرأ أو أَصْفن وكانت أحيانًا تعاكسني وتقول: «دعني أرسمك ليكون لي منك قطعةٌ بعد أن تتركني،» فأحتجّ قائلاً: «ومن قال إنّي سأتركك أنا قبل أن تتركيني أنتِ؟ ثم منذ متى ترسمين الأشخاصَ، وأنتِ التي تخصَّصتِ بالأشجار والمباني والفواكه والورود؟» فتردّ من دون أن تَفْقد ذرّةً من جديّتها: «فلتكنْ تفاحتي، ولأرسمْكَ!» وتبدأ تخطّ شيئًا على الورق أمامها، ثم تَسْتغرق في ما تَفْعله لساعةٍ أو أكثر، وهي تَنْظر ناحيتي بين الحين والآخر كأنّها فعلاً تَرْسمني ولكنْ عندما أقوم لأنظرَ إلى ما رسمتْه أجدُني أمام أشكالٍ بيضاويةٍ وكرويةٍ متداخلة لا تُشْبه أيَّ شكلٍ إنسانيّ. فإذا اعترضتُ أجابتني: «كيف أرسمُكَ وأنتَ لا تكفّ عن الحركة؟» أو أحيانًا: «هكذا أراك من خلال منظوري المجرّد،» وتبتسم ثم تضمّني إليها ضمةً طويلةً كأنّها تحاول صَهْري في ذاتها، أو كأنّها كانت بالغريزة مدركةً كم كنتُ متردِّدًا أمام مشاعرها الجيّاشة، أنا الذي كنتُ أهربُ من كل ارتباط.

ولكنّي مع ذلك كنتُ أحبّ هذه اللقاءات، وأرتاح إلى قربي من نائلة، وأَسْعدُ لتعلُّقها بي، وأشعر بأنّي متعلّق بها أيضًا على الرغم من حذري المتأصّل. إلاّ أنّي كنتُ أتهيَّبُ القدومَ إلى مرسمها، لأنّي لم أعرف حقيقةَ موقف أُمِّها منّي ومن علاقتنا، مع أنها كانت دومًا تطمأنني إلى أنّ أمها تثق بها ثقةً مطلقةً وأنّها لا تتدخّل في شؤونها البتةَ منذ طلاقها من أبيها. ولكنّ ذلك لم يُرِحْني كثيرًا لمعرفتي بخلفية الأم الاجتماعية، ولحدسي بتشابك العلاقة بينها وبين ابنتها وتعقُّدِها إلى أنْ جاء اليومُ الذي استدعتني فيه الأمُ إلى الشقة فوق المرسم بحضور نائلة وأسمعتني محاضرةً عن العادات والتقاليد، فحواها أنّها غيرُ راضية أبدًا عن علاقتي بابنتها، لا لأنّنا نَخْرج ونَدْخل معًا على الملإ، بل لأنّ خلفيتي الطبقية لا تُناسب خلفيةَ ابنتها ذات الحسب والنسب. بيْدَ أنّ أمّها كانت على درجة من الذوق والإحساس بحيث أوصلتْ رسالتَها إليّ من دون أن تستخدم أيّاً من تلك المصطلحات المجوجة

❖ ❖ ❖

كانت الأم تَقْصد عائلتَها هي بالطبع. فهذه الأسرة الأناؤوطية التي قَدِمَتْ قبل عدة أجيال من شرق أوروبا، من ألبانيا أو البوسنة أو ربما صربيا، تجذّرتْ في البلاد بسرعة، وتعرّبتْ لغةً، وإنْ حافظتْ على بعض عادات من الأنفة والكبرياء التي جلبتْها معها وعمّقتْها من خلال تميُّزِ أفرادٍ عديدين منها في الحكومة أو في حلقات العِلْم وتَوَّجَ هذا النجاحَ الأسريَّ أبوها، الذي أصبح رئيسًا للوزراء لمدة سنتين وَقد نشأت الأمُّ في بيت العزِّ هذا، وتزوّجتْ حالما أَنْهت شهادتَها الثانويةَ من شابٍّ مناسب: سليلِ عائلةٍ غنيةٍ صنعتْ ثروتَها من التجارة خلال مائة عام أو تزيد. ولم يدم الزواجُ طويلاً، فتطلّقت الأم بعد أن خلّفت ابنتيْن، وتركتْ زوجَها، وعادت مع ابنتيْها للإقامة في دار أبيها الذي رحل بعد موت زوجته بقليل، فعاشت وحيدةً مع ذكريات الجاه الماضي، لا تخالط أحدًا إلاّ فيما ندر.

في مقابل ذلك كانت أسرتي أنا أكثرَ من متواضعة. فأبي أستاذُ مدرسة ثانوية في مدينة صغيرة، وأمي ممرِّضة. وكلاهما جاء من خلفيةٍ قرويةٍ بسيطة، ووحدهما اللذان ذهبا إلى الجامعة من عائلتَيْهما. كانا فقيريْن، ولكنّ ذلك لم يمنعْهما من تثقيفِ نفسيْهما ثقافةً رفيعةً، ومن تنشئتي ـ أنا ابنهما الوحيد ـ نشأةً مرفّهةً ملؤها الفنُّ والموسيقى والأدب ولم يَخِبْ أملُهما فيَّ؛ فقد أَبْدَيْتُ منذ طويلتي مواهبَ متعدِّدةً، تركَّزتْ كلُّها في نهاية الأمر على عزف البيانو، الذي برزتُ فيه بشكلٍ جعلهما يتعاقدان مع أستاذةٍ روسيةٍ عجوزٍ تقيم في مدينتنا لكي تُشْرِف على تدريبي، ثم أرسلاني إلى العاصمة لكي أتابعَ تحصيلي في الكونسرفاتوار الوطني. وكانا على الدوام مشجِّعيْن ومتلهِّفيْن لرؤيتي أتألّق في مجالي: يَحْضران كلَّ حفلاتي حتى تلك التي تقام في مدن بعيدة، ويحضّاني على الطموح إلى بلوغ أعلى المراتب العالمية، ويدَّخران كلّ قرش إضافي لكي يَدْفعا كلفةَ تعليمي الغالية الآن وفي المستقبل المرجوّ في عاصمةٍ فنيةٍ عالميةٍ على الرغم مما سوف يعنيه ذلك من بُعدي عنهما فتراتٍ طويلة.

لم تنبس نائلة ببنتِ شَفَة بعدما أنهت أمُّها حديثَها وبقيتُ أنا جالسًا هناك، وكأسُ الشاي ـ المزيَّنةُ بصورة ناصر الدين شاه القاجاري نصفُ المشروبة ـ ساكنةٌ في يدي، وإنْ كان داخلي يَعْتمل بمشاعرَ عاصفةٍ من الغضب. وبتماسكِ نفسٍ حسدتُ نفسي عليه فيما بعد، قلتُ للأم: «أُدرك تمامًا ما ترمين إليه سيدتي، ولن أجيبَ عليه أبدًا، بل أتركُ لابنتك نائلة اتخاذَ القرار التي تراه هي نفسُها مناسبًا .»

حدجتني الأمُّ بنظرةِ مَنْ فَطِنَ إلى معرفتي بنوعية العلاقة بينها وبين ابنتها، وإدراكي لإمكانية اللعب على متناقضاتها وابتدأتْ بالإجابة. «ولكنِّي كنتُ أعوِّل على فهمِكَ وتقديرِكَ للو ..»

عندها قاطعتْها نائلة بما بدا لي وكأنّه أعلى صوتٍ غاضبٍ يُمْكنها ـ بتهذيبها الشديد ـ أن توجِّهه إلى أحد. «أظنّ يا ماما أنّ كريم محقٌّ في رأيه، وأظنُّ أنِّي أنا الوحيدةُ المعنيةُ بأمر حياتي وعلاقاتي وخياراتي ثم أظنّ أنِّي مؤهّلة أكثرَ من غيري لتقديرِ ما يناسبني ويُسْعدني ويستمرُّ في إسعادي طويلاً.»

بلعت الأمُّ هذه الإشارةَ الجارحةَ إلى فشل زواجها، ورفعتْ يديْها في الهواء بحركةٍ مستسلمة، وإنْ كانت متعجبة. ثم التفتتْ إليَّ وقالت، بتهذيب المتدرِّبة على المواضعات الاجتماعية الأرستقراطية مهما كانت الظروف. «كان التعرُّفُ إليك يا كريم فرصةً طيِّبةً، وأَرْجو أن تعاود النظرَ في ما قلتُه لك؛ فهو نتاجُ خبرةٍ طويلةٍ في العلاقات الاجتماعية، خصوصًا الفاشلة.» وابتسمتْ بمزيجٍ من الحزن والسخرية، ثم انسحبتْ إلى داخل الدار بعد أنْ حيَّتْنا نحن الاثنين بهزّةٍ من رأسها.

بقينا، نائلة وأنا، ساكتيْن عدة دقائق، وكلٌّ منّا يَحْسب ألفَ حساب لما سوف يقوله الآخر. ولعلّ نائلة قرّرتْ أن تفجِّرَ قنبلتَها في تلك اللحظة، في محاولةٍ لتأكيد شخصيّتها، أو لتحديدِ علاقتنا بطريقةٍ واضحة بعد هذه الصدمة. فقد نظرتْ في عينيّ وقالت: «لا تلتفتْ إلى ما قالته أمي يا كريم، فأنا أحبُّكَ.»

أُسْقِطَ في يدي؛ فقد سَحبتْ نائلة، بعبارتها المفاجئة والمقتضبة تلك، البساطَ من تحت أيّ اعتراضٍ يُمْكن أن أوجِّهه إلى أسلوب معاملة أمّها لي، أو أيِّ محاولةٍ للتهرُّب من اتّخاذِ قرارِ الاستمرارِ في علاقتنا، بل وترسيخها بعد تدخُّل أمّها الأرعن. ولم أدْرِ بما أجيب: فأنا

كنتُ مرتاحًا إلى علاقة الحب الحقيقية هذه التي لا اعترافَ بحبٍّ فيها، ومعوّلاً على هذا التناقض من أجل الاستمرار فيها من دون الاضطرار إلى ترسيخها بعهدِ إخلاص أو بما هو أكثر. وكنتُ كذلك مدركًا لصعوبة الالتزام بعلاقةٍ حقيقيةٍ، لأنّي كنتُ قد أقنعتُ نفسي منذ زمن طويل بأنّي لم أُخلقْ للارتباط، ولأنّي كنتُ أعتبر أنّي في سنتي تلك ألعبُ في الوقت الضائع بانتظار المنحة التي ستأخذني بَعيدًا وتَفْتحُ أمامي أبوابَ الشهرة العالمية. ولعلّ نائلة أدركتْ حرجي وتردُّدي، فقد قالت: «هيا بنا إلى غرفتك في سكن الطلبة، فأنا لا أريد البقاءَ هنا الآن »

ذهبنا إلى غرفتي ونحن نتظاهر بأنّ شيئًا لم يكن وكنتُ بيني وبين نفسي أدرك أنّ العقبة الحقيقية ليست في رفض أمّها لعلاقتنا، بل في عدم رغبتي أنا بالالتزام بعلاقةٍ واضحةٍ أصلاً. جلسْنا على الكليم الأحمر فوق الأرض في غرفتي، وأدرتُ السمفونيةَ الثالثةَ للمؤلّف البولوني «غوريكي» بموسيقاها المتأوّهة والفائقة الحزن. ولم تَفُتِ الإشارةُ نائلة، التي علّقتْ على الموسيقى قائلةً: «كم تَقْطر هذه المقطوعة بالأسى » فقلت لها: «هذا هو عنوانُها بالفعل: أغانٍ متأسّية.» وأردفتُ: «وقد أهداها غوريكي لزوجته.»

«حقّاً،» أجابت نائلة، «وما كان قصدُه من هذا الإهداء يا ترى؟»

قرّرتُ لوهلة المضيَّ في هذه المصارحة غير المباشرة فقلتُ: «لا أدري. ربما لكي يقول لها شيئًا لم يستطع البوحَ به كلامًا » ولكنّي عدتُ فأضفتُ: «أظنّ أنّ الهدف من السمفونية في المقام الأول إنسانيٌّ عامٌّ، يدين الحربَ، خاصةً الحرب العالمية الثانية بمجازرها الدموية، ويَستخدم ابتهالاً بولونيّاً شعبيّاً للعذراء لكي يُوصِلَ هذه المشاعرَ بعنفوانها إلى أوسعِ شريحةٍ ممكنة من مجتمعه.»

«جميلةٌ هي مخارجُ ألفاظ الابتهال، ولو أنّي بالطبع لا أفقه من معانيها شيئًا،» عقّبتْ نائلة، ثم أضافت: «ثمة طاقةٌ هائلة على الحزن في بلاد أوروبا الشرقية أظنُّ أنّ مردّها سلسلةُ المصائب التي أصابتها. كم أودّ أن أتعلّم لغةً أوروبيةً شرقية، الروسية بما، وأقرأ أدبها.»

هممتُ أن أقول: «ربما كان عليّ أنا أيضًا أن أتعلّم الروسية إذا جاءت منحتي من هناك،» ولكنّي عَضَضْتُ على شفتي قبل النطق بهذه العبارة مخافة أن تعتبرها نائلة دعوةً إلى مرافقتي، وأنا الذي كنتُ في تلك اللحظة أحاول تجنُّبَ الموضوع برمّته

ولكنّ نائلة كانت قد قرّرتْ وضعَ كلّ أوراقها على الطاولة. وعليه فلم يكن سؤالُها التالي مفاجئًا: «ما رأيكَ لو قدّمتُ أنا أيضًا طلبًا للحصول على منحةٍ لدراسة الفن في المدن نفسها التي ستقدّم لها؟»

لم أشأ أن أثبّطَ عزيمتَها، ولا أن آخذَ على نفسي مسؤوليةَ رفضٍ مباشرٍ لعرضها، فقلتُ متذرّعًا: «ولكنّكِ تعرفين يا نائلة أنّه سيتحتّم عليّ قبولُ المنحة التي سيختارها لي أساتذةُ الكونسرفاتوار، ولا خيار لي في البلد أو المعهد.»

«أُدرك ذلك،» قالت، «ولكنْ بإمكاني التقدُّم إلى معاهد في كلّ المدن التي قد تأتيك منها المِنَح، ونتأمّل أن أحصلَ على قبول في مدينة مِنْحَتكَ المقرّرة.»

لم أعرف بم أجيب. فلو سايرتُها فسوف أنتهي متعهّدًا بالتزام لا أُطيقه؛ ولو ثبّطتُ همّتَها فسأكون - بعُرفِ نفسي قبلَ غيري - نذلاً. فسكتُّ. ولم يرقْ ذلك لنائلة، التي كانت على ما يبدو غيرَ قادرةٍ على التراجع بعدما صرّحتْ بحبِّها وباستعدادها للسفر معي، فدفعت الحديثَ باتجاه اللاعودة: «وإذا كنتَ تَخْشى تعقيداتِ الوضع لو قرّرنا المعيشة معًا، فيُمْكننا أن نتزوّج.»

أنا متأكّد من أنّ نائلة كانت بهذا العرض منسجمةً تمامًا مع نفسها ومع مبادئها. فهي تريد أن تؤكّد لي أنّها لا تقيم وزنًا لاعتراضات أمّها، وأنّها على استعداد للزواج منّي وأنا في هذه الحالة، طالبًا فقيرًا وابنَ أسرة متواضعة، لكي تتجاوز أيةَ عقبةٍ تقف في طريق سعادتنا ولكنْ ما لم تكنْ تقدِّره حقّ قدره هو خوفي الهستيري من الزواج. فأنا كنتُ موقنًا أنّ الارتباط والزواج وإنجاب الأطفال ما هي في نهاية المطاف إلاّ علاماتُ الإخفاق والاستسلام، وأنّ على المرء الذي يقدِّر حريّتَه أن يَرْفضها مهما كانت الظروف.

«نتزوّج؟ ومن قال إنّني مستعدّ للزواج أصلاً؟ أنا لن أتزوّج إلاّ ساعةَ أتأكّد أنْ لا أمل لي في الوصول إلى درجة العالمية في العزف الزواج، في رأيي، هو الإقرارُ بفشلِ كلّ خطةٍ للحياة المبدعة، والاستسلام الكامل لأكثرِ دروبها رتابةً وخذلانًا.»

أوقفتُ نفسي قبل أن أتطرّق إلى علاقتنا نحن الاثنين، في محاولة متأخّرة لاحترام مشاعر نائلة ولكنّ المقدور كان قد وقع فقد غَشِيتْ عينيها غلالةٌ من الدمع الرقيق، وتجمّدتْ نظرتُها أمامها، وزادت وتيرةُ تنفّسِها ولو أنّها لم تنبسْ ببنت شفة، بل إنّها هزّت يدَها باتجاهي مستعطفةً أن أسكتَ عندما هممتُ بالكلام لرأْبِ الصَّدْع جلسنا هناك ساكتيْن لفترة بَدَتْ لي طويلةً، وكلٌّ منّا ينْظر أمامه إلى لاشيء، خاصةً وأنّ ضوء النهار كان قد انسحب تمامًا من الغرفة التي ابتدأتْ تعجّ بظلال غامقة، ولم يمدَّ أيٌّ منّا يدَه ليُشْعل النورَ ثم قامت نائلة وسَوّتْ أطرافَ ثيابها، وسألتني أن أرافقها إلى الخارج؛ فهي تريد العودة إلى بيتها. ولم أجد ما أقوله سوى: «حسنًا»

عندما وصلنا إلى المدخل الاسمنتي المكعّب لبيتِ الطَّلَبة، توقفتْ نائلة ونظرتْ إليّ نظرةً ملؤها العتابُ والحزن، وقالت «أظنّ أن دربيْنا سيفترقان هنا وداعًا، وشكرًا على الأيام الجميلة التي أعطيْتني إيّاها. أرجو لك النجاحَ التي تبتغيه، وأظنّك ستبلغه لأنّكَ تستحقّه.» واقتربتْ منّي وقبّلتني على الوجنتيْن وكان لقبلتيْها الخاطفتيْن وخزٌ حادٌّ وباردٌ أحسستُ به ينغرز في أعماق رأسي. ولم أشأ أن أقول «وداعًا» لترسيخِ ختمِ النهاية، بل قلتُ فقط: «إلى اللقاء.»

❖ ❖ ❖

لم يكن مقدّرًا لنا أن نلتقي بعد ذلك. فقد حصلتُ على منحة إلى فرنسا وذهبتُ إلى باريس، حيث أقمتُ ودرستُ وعزفتُ سبعَ سنوات في البداية ظَنّ أساتذتي أنّ موهبتي ستؤهّلني لأن أكون عازفَ سولو على المستوى العالمي، ثم غيّروا تقديرَهم، ونصحوني بالالتحاقَ بفرقةٍ سمفونية لكنّني لم أجد فرقةً في باريس تَقْبلني، فقبلتُ عرضًا من فرقة أڤينيون، المدينةِ الصغيرةِ في أقصى الجنوب الشرقي من البلاد، والتحقتُ بها قبل ثلاث سنوات. أعزف حوالي عشرين مرةً في السنة هناك، وحوالي أربعين مرةً في جولات على مدن أوروبية مختلفة. ومازلتُ محافظًا على أملي في بلوغ مرتبة عازف السولو. وعليه فأنا لم أتزوّجْ بعدُ، على الرغم من أنّي ابتدأتُ مؤخّرًا أدرك أنّ معادلتي ربما كانت خاطئةً منذ البداية. بالإضافة إلى أنّ صاحبتي خلال السنين الثلاث الأخيرة، عازفةَ الڤيولا في فرقتنا، قد بدأتْ بالتململ من رفضي الارتباطَ، وأخذتْ تكرّر الحديثَ عن رغبتها في الإنجاب قبل أن يفوتها القطار.

أما نائلة فقد سمعتُ أنّها سافرتْ إلى «كراكوف» في پولونيا لدراسة الفنّ، وتعلّمت اللغةَ الپولونيةَ وربما الروسية أيضًا، وتزوّجتْ أستاذًا لها، فنانًا مثلَها، وعاشت معه هناك تَرْسم وتَرْعى عائلةً من ثلاثة أطفال. وأصبحتْ فنانةً مشهورةً تَعْرض في أهمّ المدن الأوروبية. وقد أتيحت لي فرصةُ رؤية معرضٍ لها حين زرتُ مع فرقتي مدينةَ پراغ، عاصمة التشيك ووجدتُ في لوحاتها قبسًا من أشكالها الماضية الدائرية والبيضاوية ذاتها، ولكنّ أسلوبَها ترسّخ ونضج، وتشكيلاتِها توازنتْ، وألوانَها استقرّت على مجالٍ يراوح بين الألوان الغامقة ولا يَدَعُ الفواتحَ تظهر إلاّ على شكل بقع منيرةٍ صغيرةٍ غير متوقّعة وقرأتُ في الكاتالوغ المرافق للمعرض أنّ لوحات نايلة، كما درجتْ على كتابة اسمها باللغات الأوروبية، تتميّز بحزنٍ عميقٍ، ولو أنّها جميعَها بدون استثناء تحاول مكافحةَ هذا الأسى الطاغي عبر حركاتٍ تشكيليةٍ واعية وبقعٍ ضوئيةٍ محدّدة تَرْمز إلى أكثرِ المشاعرِ عمقًا وأصالةً في النفس الإنسانية: مشاعرِ إدراك عبثية الحياة اللامتناهية، والانغماس فيها حتى الثمالة رغمَ ذلك.

كامبردج، ماساشوستس